فَهُمْ لا يُبْصرون..

عندما عزم رسول الله ﷺ على الهجرة ، أتاه جبريل عليه السلام ، فقال: لاتبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه. فلما كانت عتمة من الليل اجتمع المتأمرون على بابه ﷺ، يرصدونه حتى ينام، فيثبون عليه. فلما رأى رسول الله ﷺ مقامهم، قال لعلى بن أبى طالب: نمْ على فراشى ، وتسجّ ببردى هذا الحضرمى الأخضر، فنمْ فيه ، فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام فى بردة ذلك إذا نام.

فلما اجتمع المتآمرون على باب رسول الله، قال أبو جهل: إن محمداً يزعم أنكم إذا تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثتم من بعد موتكم، ثم جُعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بُعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تُحرقون فيها. فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنةً من تراب فى يده، ثم قال: أنا أقول ذلك، أنت أحدهم. وأخذ تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم، وهو يتلو هذه الآيات من سورة (يس):

﴿ يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥ ﴾[يس١-٥]. إلى قوله: ﴿ .. فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾[يس:٩].

حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات، ولم يَبْقَ منهم رجل إلا قد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف حيث أراد أن يذهب. فآتاهم آتٍ لم يكن معهم ، فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمداً . قال: خيّبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك فيكم رجلاً إلا قد وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته. أفما ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب. ثمّ جعلوا يتطلعون، فيرون علياً فى الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ ، فيقولون: والله إن هذا محمد نائماً، عليه برده.

فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام على رضى الله عنه من الفراش، فقالوا: والله لقد صدقنا الذى حدّثنا[1].

قال تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٩]

وهى بعض مما قرأه رسول الله ﷺ على القوم عندما أراد الخروج من بيته. فلم يتمكّن القوم من رؤيته أو الإحساس بالتراب الذى وضعه على رؤوسهم، وهم فى كامل يقظتهم وانتباههم. وهذا يعنى أن الله تعالى جعل أمامهم ومن خلفهم سدوداً ، تمنعهم من الرؤية والإحساس برسول اللّه.

ولكنها ليست سدوداً كتلك التى يعرفها الإنسان فى واقعه المادى، بل سدود أخرى ليس للإنسان أن يدرك طبائعها ، أو أن يشعر بوطأتها.

لقد كانت عيون القوم ترى الأشياء، فجعل الله تعالى أمامها سداً يمنعها من رؤية رسول الله ﷺ ، ولكنه لم يمنعهما من رؤية ما سوى رسول الله.

وتعلمون جيداً أنّ فعاليَّة الإنسان مع الوسط المحيط به تنشأ من خلال خضوع الطرفين لقوانين واحدة، تمكّنهما من التفاعل مع بعضهما البعض ، وإذا افتُقد التفاعل بين طرفين يعيشان فى وسط واحد، فذلك يعنى أن أحدهما خرج عن القانون الأول إلى قانون آخر، لا قدرة للطرف الثانى على الدخول فى نطاقه؛ لقصوره عن ذلك.

فمن الذى خرج عن القانون الطبيعى المعتاد ، محمد ﷺ أم القوم المتأمرون؟

(١) السيرة النبوية لابن هشام - الجزء الثانى - ص ٢٥٦-٢٥٧.

أولاً : محمد ﷺ :

لا أجد طريقاً يسوّغ لنا القول بأنّ رسول الله هو من خضع للتغيير؛ لأنه لا يجوز لنا القول بأنه ﷺ خرج عن طبيعته الماديَّة إلى طبيعة أخرى فى نطاق قانون آخر، فلم يَتَسنَّ للقوم أن يروه أو أن يسمعوه.

ثانياً : القوم المتآمرون :

أما هؤلاء، فإن المنطق العقيدى والفكرى يقول إنهم هم الذين خضعوا للتغيير، لأنّ إسناد السّدّ إليهم يشير إلى أنهم خضعوا لحالة أخرى غير الحالة المعتادة التى تمكنهم من رؤية رسول الله ﷺ.

ولكى نفهم فكرة السّدّ يجب أن ننظر إليها من باب آخر غير باب الشىء الذى يعترض طريق شىء آخر. فالسّد الذى يبنيه الإنسان لصدّ المياه وتخزينها، له معنى آخر غير المعنى المادى المحسوس، وهو أنّه قبل أن يكون على هذه الصورة كان قانوناً هندسيّاً اعتمد على المعطيات الموجودة فى الحياة. وكذلك السد الذى حجب القوم عن رؤية رسول الله ﷺ ، لم يكن صورة ماديَّة أو شبيهاً بالصورة الماديّة ، إنما كان قانوناً قدّره جل شأنه فى الوسط المحيط أو فى ذات الإنسان.

١ - الوسط المحيط :

إن العين ليس لها أن ترى إلا فى ظلّ قانون ييِّسر لها الرؤية، فهى فى الظلام الدامس لا ترى شيئاً مع أنها تملك القدرة على الرؤية، ولكن الوسط المحيط بها ليس داخلاً فى نطاق القوانين المقدّرة للرؤية.

وكذلك هؤلاء القوم كانت عيونهم قادرة على الرؤية، ولكنه جل شأنه جعل الوسط المحيط بها خارجاً عن إطار متطلبات الرؤية، فلم تتمكّن عيونهم من رؤية رسول الله ﷺ ، مع أنها كانت مفتوحة متيقّظة.

وقوله تعالى: (أغشيناهم) يفيد أنه، سبحانه ، قد جعل عليهم غشاء يحجبهم عن الرؤية، ولكنه، سبحانه، جعله مقصوراً على عدم رؤية رسوله الأكرم بدون أن يمنعهم من أن يروا ما عداه.

٢ - ذات الشيء :

ويتمثّل فى أنه جل شأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، ولكنها ليست كينونة عشوائية، بل كينونة قدّرها جل وعلا تقديراً ، من خلال قوانين ثابتة، ليس للإنسان أن يطّلع عليها، ناهيك عن التحكم فيها.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[الأنبياء:٦٩].

فاستجابت لأمر ربها، فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، لا على سواه، فكانت تحرق كل شيء يُلْقى فيها دون أن تمسّه عليه السلام بأدنى أذى.

وكذلك عيون القوم، أمرها جل شأنه أن لا ترى رسول الله، وأمر آذانهم بأن لا تسمع حركة خروجه . وقوله لأبى جهل (وأنت أحدهم) ، وأمر أجسادهم بأن لا تشعر بالتراب، وهو يُلّقى على رؤوسهم.

فلم تملك هذه الحواس إلا أن تستجيب لأمر الله تعالى.

وقد جرت المعجزة بدون أن يشعر القوم بأنّ قدرةً ما تدخّلت فى مسار الحدث فى ذواتهم ، أو فى الوسط المحيط بهم، فلو أنهم سُئلوا : هل شعرتم بتغيّر فى قدراتكم، كأن تكونوا فقدتم القدرة على الرؤية أو على السمع أو ما شابه ذلك؟ لقالوا: لم نشعر بأى شيء من ذلك، فقد كنا نسمع ونرى، ونراقب بيت محمد بدون أن نغفل عنه طرفة عين.